الانتحار

ـ ٣ ـ

قال المسيَّبُ بنُ رافعٍ : وكان الإمامُ قد شَغَل خاطرَه بهذه القصَّة ، فأخذت تَمُدُّ مدَّها في نفسه ، ومكَّنت له من معانيها بمقدار ما مكَّن لها في هَمِّه ، وتفتَّق بها ذهنُه عن أساليبَ عجيبةٍ يتهيأ بعضُها من بعضٍ ، كما يلدُ المعنى المعنى . فلما قال الرَّجُلانَ مَقالهما آنفاً ، وأجابهما بتلك الحكمةِ ، والموعظةِ الحسنة ؛ انْقدحَ له من كلامهما ، وكلامِه رأيٌ ، فقال :

يا أهلَ الكوفة ! أنشُدكم اللهَ والإسلامَ : أيُّما رجل منكم ضاق بروحه يوماً ، فأراد إزهاقَها إلا كشف لأهل المجلس نفسَه ، وصَدَقَنا عن أمره ، ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثَلْباً[1] ولا عاباً[2] ، فإنَّما النكبةُ مذهبٌ من مذاهب القَدَر في التَّعليم ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبة في رجلٍ هو ابتداءَ الحكمة فيه لنفسه ، أو لغيره ؛ وما من حزينٍ إلا وهو يشعر في بعض ساعات حزنه : أنَّه قد غُيِّبتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه ، وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها ، كما لألأَ في سيفٍ بَريقُه .

وعقلُ الهمِّ عقلٌ عظيم ، فلو قد أُريدَ استخراجُ علمٍ يَعلمهُ النَّاسُ من اللَّذات ، والنِّعم ؛ لكان من شرح هذا العلم من الحمير ، والبغال ، والدَّوابِّ ما لا يكون مثلُه ، ولا قِرابُهُ في العقلاء ، ولا تَبلغهُ القُوى الآدميَّةُ في أهلها ، بَيدَ : أنَّه لو أريد علمٌ من البؤس ، والألم ، والحاجةِ ؛ لما وُجد شرحُهُ إلا في الناس ، ثُمَّ لا يكون الخاصُّ منه إلا في الخاصَّة منهم .

وما بانَ أهلُ النِّعمةِ ولا غَمَروا المساكينَ في تَطاوُلهم بأعناقهم إلا من أنَّهم يَعلُون أكتافَ الشَّياطين ؛ فالشَّيطانُ دابَّةُ الغنيِّ الذي يجهلُ الحقَّ عليه في غناه ، ويحسِبُ نفسه مُخَلًّى لشهواته ونعيمه ، كما هو دابَّةُ العالم الذي يجهل الحقَّ عليه في علمه ، ويزعمُ نفسَه مخلًّى لعقله ، أو رأيه ، وما طال الطَّويلُ بذلك ، ولا عن

---

(١) « ثلباً » : ثلبه : لامه أشدَّ اللومَ ، وتنقَّصه ، وعابه ، وآخذه بلسانه .

(٢) « عاباً » : العيب والعاب : الوصمة .

ذلك قَصْرَ القصير ، وهل يصحُ في الرَّأي أن يقال هذا أطولُ من هذا ؛ لأنَّ الأوَّل فوق السُّلَّم ، والآخر فوق رجليه . . .؟!

* * *

قال المسيَّب : فقام شيخٌ من أقصى المجلس ، وأقبل يتخطَّى الرِّقابَ ، والناسُ يَنْفرجون له ؛ حتَّى وقف بإزاء الإمام ؛ وتَفرَّسْتُه ، جعلتْ عينيَّ تَعْجمُهُ ، فإذا شيخٌ تبدو طَلاقَةُ وجهه شباباً على وجهه ، أبلجُ[١] الغُرَّة ، مُتهلِّلٌ ، عليه بشاشةُ الإيمان ، وفي أساريره أثرٌ من تقطيبٍ قديم ، ينطق هذا ، وذاك : أنَّ الرَّجلَ فيما أتى عليه من الدَّهر قد كان أطفأ المصباحَ الذي في قلبه مرَّةً ، ثُمَّ أضاءه . وعجبتُ أن يكون مثلُ هذا الشَّيخ قد همَّ بقتل نفسه يوماً ، وأنا أرى بعينيَّ نفسَه هذه مُنْبَثِقةً في الحياة انبثاقَ النَّخلةِ السَّحوقِ[٢] .

وتكلَّم هذا الرَّجل ، فقال :

أمَّا إذ ناشدتَنا اللهَ ، والإسلامَ ، وميثاقَ العلمِ ، ووحيَ الأقدار في حكمتها ؛ فإني محدِّثُك بخبري على وصفه ، ورَصْفه : أملقْتُ[٣] منذ ثلاثين سنةً ، ووقف بي من الدَّهر ما كان يجري ، وأصبحتُ في مزاولة الدُّنيا كعاصرِ الحَجَرِ ، يريد أن يشربَ منه ، وعجزتْ يديَّ حتى لَظُفْرُ دَجاجةٍ في نبشها التُّرابَ عن الحبَّة ، والحشرَةِ أقدرُ منِّي ؛ وطرَقَتْني النوائبُ ، كأنَّما هي تُساكِنُني في داري ، وأكلني الدَّهرُ لحماً ، ورماني عِظاماً ، فما كان يقفُ عليَّ إلا كلابُ الطَّريق ، ولي يومئذٍ امرأةٌ ، أعقبتُ منها طفلاً ، ويلزمُني حقُّهما ، ولا أستطيعه ؛ وكان بيننا حُبٌّ فوق المعاشرة ، والألفة ، قد تركني من امرأتي هذه كالشَّاعر الغَزِلِ من صاحبته ، غير أنَّ الشِّعر في دمي لا في لساني .

فلما نَهَكَتْني المصائبُ ، وتناولَتْني من قريبٍ ، ومن بعيد ؛ قلت للمرأة ذاتَ يومٍ ـ وقد شَحِبَتْ ، وانكسر وجهُها ، وتَقَبَّضَ من هُزاله ـ : وايمُ الله يا فلانة ! لو جاز أن يُؤكلَ لحمُ الآدميِّ ؛ لذبحتُ نفسي لتأكلي ، وتَدِرِّي على الصَّبيِّ ؛ ولقد

---

(١) « أبلج » : بَلِجَ : تباعد ما بين حاجبيه ، فهو أبلج . وكلُّ واضحٍ : أبلج .
(٢) « السحوق » : سحقتِ النخلة : طالت . ويُقال : عودٌ سَحوق ، ونخلةٌ سحوق .
(٣) « أملقت » : أملق فلانٌ : أنفق ماله ، وبذَّره حتى افتقر . وأملقتْه الخطوب : أفقرته .

هممتُ أن أركبَ رأسي ، وأذهبَ على وجهي لتَفقداني ، فتفقدا شُؤمي عليكما ؛ ولكن ردَّني قلبي ، وهو حَبَسني في هذه الدُّنيا الصَّغيرة التي بينكما ، فليس لي من الأرض مَشْرِقٌ ، ولا مغربٌ إلا أنتِ ، وهذا الصَّبيّ . ولستُ أدري والله ! ما نصنع بالحياة ، وقد كنا من نباتها الأخضرَ ، فرَجعنا من حَطبها اليابس ؛ وعادت الشَّمسُ لا تَغْذوها ، بل تمتصُّ منها ما بقي ، ولا تستضيء لها ، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها !

إنَّ من فقَد الخيرَ ، ووقع في الشَّرِّ ، حَرِيٌّ أن يكون قد أصاب خيراً عظيماً إذا قتل نفسَه ، فخلُص من الشَّرِّ ، والخير جميعاً ، لا يُكْدِي[1] ، ولا يَنْجَحُ ، ولا يألمُ ، ولا يَلَذُّ ؛ وكما أنكرته الدُّنيا ؛ فلينكرْها . أمَا إنَّه إن كان القبرُ ؛ فالقبرُ ، ولكن في بطن الأرض ، لا على ظهرها ، كحالنا ، وإن كان الموتُ ؛ فالموتُ ، ولكن بمرَّةٍ واحدةٍ ، وفي شيءٍ واحدٍ ، لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً ، أنواعاً . قد ماتت أيَّامُنا ، وتركنا نعيش كالموْتى لا أيامَ لهم ، وزاد علينا الموتى في النعمة ، والرَّاحة : أنَّهم لا يتطفَّلون على أيام غيرهم ، فيُطْرَدوا عن يوم هذا ، ويوم ذاك .

قال : فاستعبرَت[2] المرأةُ باكيةً ، ولما فرغتْ من كلام دموعها ؛ قالت : كأنَّك تريد أن تَفْجَعَنا فيك ؟! قلتُ : ما عَدَوْتِ ما في نفسي ؛ ولكن هل بقي فيَّ من تُفْجَعين فيه ؟ أما ذهب منِّي ذاك الذي كان لك زوجاً ، وكاسباً ، وجاء الذي هو همُّك ، وهمُّ هذا الصَّبيِّ من رجلٍ كالحفرة ، لا تنتقل من مكانها ، وتأخذُ ، ولا تُعطِي ؟

أمْ واللهِ ! لكأنِّي خُلقتُ إنساناً خطأً ، حتَّى إذا تبيَّنَ الغلطُ أُريد إرجاعي إلى الحيوان ، فلم يأتِ لا هذا ، ولا ذاك ، وبقيتُ بينهما ؛ يمرُّ الناس بي ، فيقولون : إنسانٌ مِسكينٌ ! وأحسِب لو نطقت الكلابُ ؛ لقالت عنِّي : كلبٌ مِسكين . يا عجباً ! عجباً لا ينتهي ! أصبحت الدُّنيا في يدنا من العجز ، واليأس كأنَّما هي بَعْرَةٌ ، نَجْهَدُ في تحويلها ياقوتةً ، أو لؤلؤة .

فقالت المرأة : والله ! لئن حَيِيْتَ على هذا ؛ إنَّ هذا لكفرٌ قبيح ، ولئن مُتَّ

---

(١) « يكدي » : أكدى الرجل : افتقر بعد غِنى ، أو : أخفق في طلب حاجته .

(٢) « استعبرت » : ذرفت العبرات ، وهي : الدموع .

عليه ؛ إنَّه لأقبحُ ، وأشدُّ .

فقلت لها : ويحكِ ! وماذا تَنظر العينُ المبصِرةُ في الظلام الحالكِ إلا ما تنظرُ العمياء ؟

قالت : ولِمَ لا تنظر ، كما ينظر المؤمنُ بنور الله ؟

قلت : فانظري أنت وخبِّريني ماذا تريْن ؟ أتريْن رغيفاً ؟ أتريْن إداماً ؟ أتريْنَ ديناراً ؟

قالت : والله ! إنِّي لأرى كلَّ ذلك ، وأكثرَ من ذلك . أرى قمراً سيكْشِفُ هذه السُّدْفَةَ[1] المظلِمةَ إن لم يَطْلُع ؛ فكأنْ قَدْ .

قال : فغاظتني المرأةُ ، ورأيتُها حينئذٍ أشدَّ عليَّ بِقلَّة ذاتِ عقلِها من قلَّةِ ذاتِ يدي ؛ ولولا حبِّي إيَّاها ، ورحمتي لها ؛ لأوقعتُ بها . واستحكم في ضميري أن أُزهِقَ نفسي ، وأدَعَها لما كُتِب لها .

وقلت : إنَّ جُبنَ المرأة هو نصفُ إيمانِها حين لا يكون نصفَ عقلها ، وللقَدَر يدٌ ضعيفةٌ على النِّساء ، تَصْفَعُهنَّ ، وتمسحُ دموعَهنَّ ، وله يدٌ أخرى على الرِّجال ثقيلةٌ ، تصفع الرَّجلَ ، وتأخذ بحلقه ، فتعصِرُه .

* * *

قال : وكنتُ قد سمعتُ قولَ الجاهلية في هذه الخليقة ؛ أرحامٌ تَدْفَع وأرضٌ تَبلَع . فحضَرني هذا القولُ تلك السَّاعةَ ، وشُبِّه لي ، واعتقدتُ : أنَّ هذا الإنسانَ شيء حقيرٌ في الغاية من الهوان ، والضَّعة : حملته أمه كُرْهاً ، وأثْقلتْ به كُرهاً ، ووضعته كُرهاً . وهو من شُؤمِه عليها إذا دَنَا لها أن تَضَعَ ، لم يخرج منها حتى يَضْرِبهَا المخاضُ ، فتتقلَّبُ ، وتصيح ، وتتمزَّقُ ، وتَنْصَدع ، وربَّما نَشِبَ فيها ، فقتلها ، وربَّما التوى فيُبْقَرُ بطنها عنه . وإذا هي ولدته على أيِّ حاليْها من عُسْرٍ ، وتطريقٍ بمثل المطَارقِ المحطِّمة ، أو سَرَاحٍ ، ورَواحٍ ، كما يتيسَّر ، فإنَّما تلده في مَشيمَةٍ ودماءٍ ، وقذَرٍ من الأخلاط كأنَّما هو خارجٌ من جُرْح . ثُمَّ تتناولُه الدُّنيا ، فتضَعُه من معانيها في أقبحَ ، وأقذرَ من ذلك كلِّه . ثُمَّ يستوفي مُدَّتَه فيأخذُه القبرُ ،

---

(١) « السُّدفة » : الظلمة .

فيكون شرّاً عليه في تمزيقه ، وتعفينه ، وإحالته .

قال : وحضَرني مع كلمة الجاهلية قَولُ ذلك الجاهل الزِّنديق ؛ الذي يُعرفُ (بالبَقْليِّ) إذ كان يزعم : أنَّ الإنسان كالبَقْلة ، فإذا مات ؛ لم يَرْجع . وقلت لنفسي : إنَّما أنتِ بَقْلةٌ حمقاءُ ذاويةٌ في أرضٍ نَشَّاشةٍ[1] ، فقتلهَا مِلْحُ أرضها أكثرَ ممَّا أحياها .

قال : وثُرتُ إلى المُدْية أريد أن أتوَجَّأ[2] بها ، فتُبادِرني المرأةُ ، وتحولُ بيني وبينها ؛ وأكاد أبْطُشُ بها من الغيظ ، وكانت روحُ الجحيم تَزْفِرُ من حولي ، لو سَمِعوا ؛ سمعوا لها شَهيقاً وهي تَفور ؛ فما أدري : أيُّ مَلَكٍ هبط بوحْيِ الجنَّة في لسانِ امرأتي ؟!

قلت لها : إنَّها عَزْمةٌ مني أن أقتلَ نفسي .

قالت : وما أريد أن أنْقضَها ، ولستُ أرُدُّكَ عنها ، وستمضيها .

قلت : فخلِّي بين نفسي وبين المُدية .

قالت : كلُّنا نفسٌ واحدةٌ ، أنا ، وأنت ، والصَّبيُّ ، فلْنَقْضِ معاً ؛ وما بنفسي عن نفسك رغبةٌ ، ولا ندعُ الصَّبيَّ يتيماً يصفعُه من يُطْعِمه ، ويضربه ابنُ هذا ، وابنُ ذاك ؛ إذ لا يستطيعُ أن يقول في أولاد النَّاس : أنا ابنُ ذلك ، ولا ابنُ هذا .

قلت : هذا هو الرأي .

قالت : فتعالَ اذبح الطِّفل . . . !

* * *

قال المسيَّب بن رافع : وما بلغ الرَّجلُ في قصَّته إلى ذبح صغيره حتى ضجَّ النَّاسُ ضجةً مُنكَرةً ، وتوهَّم كلُّ أبٍ منهم : أنَّ طفلَه الصَّغيرَ مُمدَّدٌ للذَّبح ، وهو ينادي أباه ، ويشُقُّ حَلْقهُ بالصُّراخ : يا أبي ! يا أبي ! أدركْني يا أبي !

أمَّا الإمامُ ؛ فدَمَعَتْ عيناه ، وكنتُ بين يديه ، فسمعتُه يقول : إنَّا لله ، كيف تصنعُ جهنَّمُ حطبَها ؟!

وأنا فما قَطُّ نسيتُ هذه الكلمة ، وما قطُّ رأيتُ من بعدها كافراً ، ولا فاسقاً ،

---

(١) « الأرض النَّشاشة » : هي السَّبْخة ؛ التي فيها الملح والماء . (ع) .

(٢) « أتوجأ » : أضرب .

فاعتبرتُ أعمالَه إلا كان كلُّ ذلك شيئاً واحداً هو طريقةُ صَنعته حَطباً . . . كأنَّ الشَّيطانَ ـ لعنه الله ـ يقول لأتباعه : جَفِّفوه . . .

وكانت هُنَيْهاتٌ ، ثُمَّ فاءَ النَّاسُ ، ورجعوا إلى أنفسهم ، وصاحوا بالمتكلِّم : ثمَّ ماذا ؟!

* * *

قال الرَّجل : ففتحتُ عيني ، وقلبي معاً ، ورَمقْتُ الطِّفلَ المسكينَ الذي لا يملك إلا يديه الضَّعيفتين ؛ ونظرتُ إلى مَجْرَى السِّكِّينِ من حلقِه ، وإلى مَحَزِّها في رقبته اللَّينة ؛ ورأيتُه كأنَّما تَفرَّقَ بصرُه من الفَزَع على كلِّ جهةٍ ، ورأيتُه يتضرَّع لي بعينيه الباكيتين ألا أذبَحه ، ورأيته يتوسَّلُ بيديه الصَّغيرتين ، كأنَّه عرف : أنَّه منِّي أمام قاتِله ، ثُمَّ خُيِّل إليَّ : أنَّه يتلوَّى ، وينتفض ، ويصرُخُ من ألم الذَّبح تحت يد أبيه ، تحت يد أبيه التَّعِس .

يا ويلتاه ! لقد أخذني ما كان يأخُذني لو تهدَّمت السَّماءُ على الأرض ، وحسبتُ الكونَ كلَّه قد انفجر صُراخاً من أجل الطِّفل الضَّعيف ؛ الذي ليس له إلا ربُّه أمام القاتل .

فَهرْوَلْتُ مسرعاً ، وتركتُ الدَّارَ ، والمرأةَ ، والصَّبيَّ ، وأنا أقول : يا أرحمَ الرَّاحمين ! يا من خلق الطِّفل : عالَمُهُ أمُّه ، وأبوه وحدَهما ، وباقي العالم هباءٌ عنده . يا من دبَّر الرَّضيعَ ! فوهبه مُلكاً ، ومملكةً ، وغنًى ، وسروراً ، وفرحاً ، كلُّ ذلك في ثَدي أمِّه ، وصدرِها لا غير . يا إلهي ! أنْسِني مثلَ هذا النِّسيان ، وارزقْني مثلَ هذا الرِّزق ، واكفُلْني بمثل هذا التَّدبير ، فإنِّي منقطعٌ إلا من رحمتك انقطاعَ الرَّضيع إلا من أمِّه .

* * *

قال الرَّجل : ولقد كنتُ مغروراً كالجيفة الرَّاكدة تحسِبُ : أنَّها هي تفور حين فارت حشَراتُها . ولقد كنت أحقرَ من الذُّباب ؛ الذي لا يجد حقائقَه ، ولا يلتمسُها إلا في أقذرِ القذر .

وما كدت أمضي ، كما تسوقُني رِجلاي ؛ حتَّى سمعتُ صوتًا نَدِياً مطلولاً يُرَجِّع

ترجيعَ الوَرْقاء[١] في تَحْنانِها ، وهو يُرتِّل هذه الآية :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨][٢] .

قال : فوقفت أسمع ، وماذا كنت أسمع ؟ هذه شُعَلٌ ، لا كلمات ، أحرقتْ كلَّ ما كان حولي ، ولمسَتْ مِصباحَ رُوحي المنطفئ ، فإذا هو يتوهَّجُ ، وإذا الدُّنيا كلُّها تتوهَّجُ في نوره ، وارتفعتْ نفسي عن الجَذْبِ الذي كنتُ فيه ، وكأنَّما لفَّتْني سحابةٌ من السُّحب ، ففي روحي نسيمُ الماء البارِدِ ، ورائحةُ الماء العذْب .

لعن الله هذا الاضطرابَ الذي يُبتَلى الخائفُ به ! إنَّنا نحسِبه اضطراباً ، وما هو إلا اختلاطُ الحقائقِ على النَّفس ، وذَهابُ بعضِها في بعضٍ ، وتَضَرُّبُ الشَّرِّ في الخير ، والخير في الشَّرِّ حتَّى لا يَبِينَ جنسٌ من جنسٍ ، ولا يُعْرَفَ حَدٌّ من حدٍّ ، ولا تمتازَ حقيقةٌ من حقيقة . وبهذا يكون الزَّمنُ على المبتَلى كالماء ؛ الذي جَمدَ ، لا يتحرَّكُ ، ولا يَتَسايَرُ ، فيلوحُ الشَّرُّ ، وكأنَّه دائماً لا يزال في أوله يُنذِرُ بالأهوال ، وقد يكون هَوْلُهُ انتهى ، أو يُوشك .

قال الرَّجل : وكنت أرى يأسي قد اعْتَرَى كلَّ شيءٍ ، فامتدَّ إلى آخر الكون ، وإلى آخر الزَّمن ؛ فلمَّا سكَن ما بي ؛ إذا هو قد كان يأسَ يومٍ ، أو أيامٍ في مكانٍ من الأمكنة ؛ أمَّا ما وراء هذه الأيام ، وما خلْف هذا المكان ، فذلك حكمةُ حكم الشَّمس ؛ التي تطلُع ، وتغيب على الدُّنيا لإحيائها ، وحكمُ الماء الذي تَهْمِي السماءُ به ؛ ليسقِيَ الأرضَ ، وما عليها ، وحكمُ استمرارِ هذه الأجرام السَّماوية في مَدَارِها ، لا تُمسِكها ، ولاتَزِنُها إلا قوَّةُ خالقها .

أين أثرُ الإنسان الدَّنيء الحقيرِ في كلِّ ذلك ؟ وهل الحياةُ إلا بكلِّ ذلك ؟ وما الذي في يد الإنسان العاجزِ من هذا النِّظام كلِّه ، فيَسُوغَ له أن يقول في حادثةٍ من حوادثه : إنَّ الخير لا يبتدئ ، وإنَّ الشَّرَّ لا ينتهي ؟

تعتَرِي المصائبُ هذا الإنسانَ ؛ لتمحوَ من نفسه الخِسَّةَ ، والدَّناءة ، وتكسِرَ

---

(١) « الورقاء » : الحمامة .

(٢) « اصبر نفسك » : احْبِسْها ، وثبِّتْها . « لا تعدُ عيناك عنهم » : لا تصرفْ عيناك النظر عنهم . « أغفلنا قلبه » : جعلناه غافلاً ساهياً . « فرطاً » : إسرافاً ، أو تضييعاً وهلاكاً .

الشَّرَّ ، والكبرياء ، وتَفَثَاً[1] الحدَّةَ ، والطَّيش ؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيدَ بها طيشاً ، وحدَّةً ، وكبرياءً ، وشرّاً ، ودناءةً ، وخسَّةً ، فهذه هي مصيبة الإنسان ، لا تلك .

المصيبةُ : هي ما يَنْشأ في الإنسان من المصيبة .

* * *

قال : وردَّدْتُ الآية الكريمةَ في نفسي ، لا أشبعُ منها ، وجعلتُ أُرتِّلها أحسنَ ترتيلٍ ، وأطرَبه ، وأشجاه ، فكانت نفسي تهتزُّ ، وترتجُّ كأنَّما هي تبدأ تنظيمَ ما فيها لإقرار كلِّ حقيقةٍ في موضعها بعد ذلك الاختلاط ، والاضطراب .

صبرُ النَّفسِ مع الذين يمثِّلون روحانيَّتَها تمثيلاً دائماً بالغَداة والعشِيِّ ، وعلى نور الحياة ، وظلامها ، يريدون وَجه الله الذي سبيلُه الحبُّ لا غيرُه من مالٍ ، أو متاعٍ . وتقييدُ العينين بهذا المثَل الأعلى ، كما يكون الأمرُ في الجمال ، والحبِّ ؛ والرَّبطُ على الإرادة ؛ كيلا تَتَفَلَّتَ ، فتُسِفَّ إلى حقائر الدُّنيا المسمَّاة هُزُءاً وتهكماً : زينةَ الدُّنيا ، تلك التي تشبه حقائقَ الذُّباب العالية . . . فتكونُ قَذرةً ، نجسةً ، ولكنَّها مع ذلك زينةُ الحياة لهذا الخَلْق الذُّبابي . . .

تلك والله ! هي أسبابُ السَّعادة ، والقوَّة . **أمَّا المصائبُ كلُّها ؛ فهي في إغفالِ القلب الإنسانيِّ عن ذكر الله .**

* * *

قال : ولما صحَّت تَوبتي ، وقَوِيَ اليقينُ في نفسي ؛ كَبُرَت روحي ، واتَّسعت ، وانبعثت لها بواعث من غير حقائق الذُّباب ، وأشرق فيها الجمالُ الإلهيُّ ساطعاً من كلِّ شيءٍ ، وكان الصُّبحُ يطلعُ عليَّ كأنه ولادةٌ جديدةٌ ، فأنا دائماً في عُمر طفلٍ ، وجاءني الخير من حيث أحْتَسِبُ ، ولا أحتسب ، وكأنَّما نمتُ ، فانتبهتُ غنيّاً ، وعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزَّمن الحيِّ .

ولقد أفدْتُ من الآية طبيعةً لم تكن فيَّ ، ولا يثبتُ معها الشرُّ أبداً ، فأصبح من خِصالي أن أرى الحاضرَ كلَّه متحرِّكاً ، يمرُّ بما فيه من خيره ، وشرِّه جميعاً ،

---

(١) « تفثا » : فثأ غَضبَه : سكَّنه ، وكَسر حِدَّته .

وأَسْتَشْعِرَ من حركته مثلما ترى عيناي من قِطَارِ الإبلِ يهتزُّ تحت رِحاله ، وهو يغِذُّ السَّير .

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكّلاً حتّى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ، ومُروءةٍ ، وجاهٍ ، وكأنَّما كلَّمه قلبُه ، أو كلَّمه وجهي في قلبه ، فاستَنْبأني ، وبَثَثْتُه حالي ، واقْتَصَصْتُ قِصَّتي ، فقال : سيُحييك الله بالطِّفل ؛ الذي كدتَ تقتله ، فارجع إلى دارك . ثُمَّ وجَّه إليَّ دنانير ، وقال : اتَّجِر بهذه على اسم الله ، وبركته ، فسينمو فيها طفلٌ من المال يبلغُ أشُدَّه . وقد صدق إيمانُه ، وإيماني ، فبارك لي الله ، ونما طفلُ المال ، وبلَغَ ، وجاوَزَ إلى شبابه .

* * *

قال المسيَّب : وجلس الرَّجل وكان كالخطيب على المنبر ، فقال الإمام : ما أشبه النَّكبَةَ بالبَيْضَة تُحْسَبُ سجناً لما فيها ، وهي تحوطُه ، وتربِّيه ، وتُعينُه على تمامه ، وليس عليه إلا الصَّبْرُ إلى مدَّةٍ ، والرِّضا إلى غايةٍ ، ثم تَنْقُفُ البيضةُ ، فيخرجُ خَلقاً آخر .

وما المؤمنُ في دنياه إلا كالفَرْخِ في بَيضته ، عملُه أن يتكوَّن فيها ، وتمامُه أن ينبثقَ شخصُه الكاملُ ، فيخرجَ إلى عالَمِهِ الكامل .

* * *